منهج علماء العربية القدامى في الاهتمام بالتراث الشعبي.

أ.فوزية عساسلة.

جامعة باجي مختار- عنابة-الجزائر-

إذا كان التراث الشعبي هو كل ما ورثته الإنسانية على مدى الأجيال: من أفعال وعادات وتقاليد وسلوكات وأحوال، تتناول مظاهر الحياة العامة والخاصة، وطرق التواصل بين الأفراد والجماعات[1]، فقد اهتمت كل أمة بدراسته حسب ظروفها وتوجهات باحثيها الفكرية . وباعتبار الدراسات الشعبية حديثة العهد، وكانت بدايتها مع الأخوين "جرم" بألمانيا في القرن الثامن عشر[2]، فقد حاولنا في هذه المداخلة إثبات عكس ذلك، وأن الاهتمام بالأدب الشعبي قديم العهد، وأن الباحثون العرب القدامى دوّنوا ذلك في كتبهم، وما سيأتي يثبت ذلك.

1- علماء العرب الذين اهتموا بالتراث الشعبي:

أ-الجاحظ (ت 255هـ): تطرق في كتابه "البيان والتبيين" لموضوع التراث الشعبي، فتناول جوانب كثيرة من الحياة العربية، كباب الضيافة عند العرب، الذي جاء فيه كيفية استقبال الضيف والاهتمام به، يقول: "ان العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبِشر من حقوق القِرى، ومن تمام الإكرام، وأدرج على لسانهم قولهم: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة"[3]. هذه عادة حميدة من عادات العرب، عُرفوا بها منذ القدم وهي باقية حتى عصرنا الحاضر يتوارثها جيل بعد جيل، فحسن استقبال الضيف ورعايته حتى يظن أنه صاحب البيت، وذكر الجاحظ بعد هذا أمثلة من الشعر لحاتم الطائي وغيره، وهي عادة كل من دوّن هذا التراث لأن الشعر ديوان العرب. وجاء في الكتاب أيضا باب ما يستوجب من إطالة خطبة الزواج[4]، وهي فترة مهمة في حياة الزوجين، يتسنى لكلٍ منهما التعرف على الآخر في حضور الأهل.

كما وضع بابا لاتخاذ العصا في الخطابة[5] وذكر فيه أنها أعرق العادات العربية وأقدمها، إذ يعود

1- حلمي بدير، أثر التراث الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية، (دت)، ص 15.

2- نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، طبع ونشر مكتبة القاهرة الحديثة، (دت)، ص 11.

3 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، ج1، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003، ص 13.

4 - الجاحظ، المرجع نفسه، ج1، ص 79.

5 - المرجع نفسه، ج3، ص 427.

بها التاريخ إلى سيدنا سليمان وسيدنا موسى عليهما السلام، ولا زالت من شيم العربي حتى وإن لم يستعملها فهو يحملها تباهيا واعتزازا بها، وما زالت ليومنا هذا تتخذ أشكالا متعددة كالعصا السحرية التي تظهر على أفلام الكارتون والأفلام الخيالية ...إلخ . وذكر بابا آخر في من اشتُهر بلَبْس العَمَامة من العرب[1]، وهي سمة بارزة من سمات العربي؛ إذ لا يبقى رأسه عاريا، بل يغطيه بقطعة من القماش تُعطيه الهَيْبَة وعُلُو الشّأن والانتساب إلى سادة القوم وأعيانهم، وما زالت هذه العادة إلى يومنا هذا كلباس تقليدي يظهر في المناسبات المهمة والأعياد يتبعها البرنوس والجبة ...إلخ .

ب-ابن قتيبة (ت 276هـ): كان حُجَّة في علوم العربية، وخلّف الكثير من أمهات الكتب في غريب القرآن ومعانيه، وفي الفقه واللغة والأدب، واهتم إلى جانب ذلك بأخبار العرب وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وقصصهم، وذكر له "ابن نديم" كتبا اهتم فيها كُلِّيَة بالتراث الشعبي العربي منها "الحكاية والمحكي" و"حكم الأمثال" و"تعبير الرؤيا" و"عيون الأخبار"[2] . وعلّقت نبيلة إبراهيم: أن كتاب عيون الأخبار بالذات خصصه ابن قتيبة لجمع الأخبار المتنوعة التي ترتبط بطباع العرب وحياتهم الاجتماعية بصفة عامة، مستشهدا بالروايات الطريفة التي يمكن أن تندرج -إذا صنّفت- تحت مباحث شتى في الدراسات الشعبية[3].

وجاء في مقدمة كتابه "أدب الكاتب" أن "عيون الأخبار" مؤلّف يشتمل على عشرة كتب: في السلطان والحرب والشرف والأخلاق والعلم والفصاحة والإخوان والرجاء والطعام والنساء، وهو يسوق في كل موضوع شواهد من الآثار والأخبار والشواهد الشعرية[4].

واحتوى كتاب "أدب الكاتب" على عدة كتب (كتاب تقويم اليد، وكتاب تقويم اللسان ...إلخ) وقدّم له بكتاب في المعرفة بشتى أنواعها، ومنها "باب معرفة ما في السماء والنجوم والأزمان والرياح، وباب معرفة ما في الخيل وما يستحب من خَلْقِها وعيوبها، وباب في معرفة الطعام والشراب، وباب في معرفة الآلات من (لباس وثياب وسلاح)، وباب اختلاف الأسماء في الشيء الواحد لاختلاف الجهات"[5]، وكل هذه الأبواب دلّت على اهتمام العرب منذ القدم بعلم الفلك، وتربية الخيول، لاستخدامها في حروبهم وأسفارهم ...إلخ، وطريقتهم في اللباس والتجهيز لوسائل

---

1 - المرجع السابق، ج3، ص 462.

2 - نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 92.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - ابن قتيبة، أدب الكاتب، اعتنى به وراجعه: درويش جويدي، ط1، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2002، ص 8.

5 - ابن قتيبة، المرجع السابق، ص 72-88-100-127-137-143.

الدفاع عن النفس من سيوف ودروع ...إلخ، واختلاف القبائل العربية في لهجاتها.

له أيضا كتاب "المعارف" تحدث فيه عن تاريخ الأنبياء والرسل، والعرب الذين كانوا على دين قبل الإسلام، وأنساب العرب بتوسع، ثم سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ونسبه وصحابته، والخلفاء العباسيين، وأخبار مختصرة عن الفقهاء والقرّاء والناسيين، وأصحاب الأخبار والغريب والنحو، ثم أخبار الأوائل والفتوح، وأخيرا تحدث عن أُسَر الملوك في جنوبي الجزيرة وشماليها ...إلخ[1].

ج-أبو الفرج الأصفهاني (ت 356هـ): جاء في كتابه "الأغاني" ترجمة لأكثر شعراء العرب من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ومحْدَثين، وترجمة كثير من المُغَنّين في الدولتين الأموية والعباسية، كما خصصه لجمع الأغاني العربية قديمها وحديثها، وضمن موسوعته قدرا هائلا من الروايات الجاهلية والإسلامية، التي ترتبط كل الارتباط بتقاليد العرب وعاداتهم وحياتهم الروحية والفكرية بصفة عامة[2]، ولا يمكن الاستغناء عن أي من هذه المصادر للاطلاع على رموزنا التاريخية رغم ما وُجِّه إليها من نقد .

د- ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ): يقول في مقدمة كتابه العمدة: "قال صلى الله عليه وسلم: إن من الشعر لحِكْمَة، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نِعم ما تعلمته العرب، الأبيات من الشعر، يُقَدِّمُها الرجل أمام حاجته: فيستنزِل بها الكريم، ويستقطِب بها اللئيم" مع ما للشعر من عظيم المزية، وشرف الأبية، وعز الأنفة، وسلطان القدرة[3]، في كلام ابن رشيق اهتمام بالشعر، لأنه مصدر أساسي جُمع فيه تراث العرب الشعبي، فمن أراد الاطلاع على حياتهم في شتى مراحلها وحالاتها، فالشعر هو الملجأ، ولا يمكن أن تُطمس معالم العرب التراثية من الشعر، لأنه يحمل سلاحه في ذاته، وكل ما يدخل عليه يُعلم لبراعة العرب في سبك كلامهم.

وذكر ابن رشيق في كتابه عدة أبواب خاصة بالتراث العربي منها: باب في وقائعهم وأيامهم: كمغازي الرسول (ص)، وباب في أصول النسب: ذكر فيه مفاخر القبائل العربية وفرسانهم وبيوتاتهم، وباب خاص بملوك العرب: كملوك اليمن والشام والحيرة، وباب دوّن فيه الأماكن والبلدان: كالحجاز وجزيرة العرب والعراق والشام واليمن ...إلخ، وباب ذكر فيه منازل القمر وطريقة العرب

---

1 - ابن قتيبة، المرجع نفسه، ص 8.

2 - نبيلة إبراهيم، ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 91.

3 - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، حققه وفصله وعلّق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1981، المقدم، ص 10.

القدامى في معرفة الأوقات على مدار السنة: كالصيف والشتاء والخريف ...إلخ[1].

هـ-السكّاكي (ت 626هـ): بعد إسهابه في علوم الصرف والنحو والعروض، ذكر في خاتمة كتابه "مفتاح العلوم" بعض الأخبار عن نساء العرب وذكائهن وفطنتهن: كالخنساء ونقدها لشعر حسان بن ثابت، وسكينة في تحكيمها بين رواة كل من جرير وكثير وجميل ونصيب[2]. ولا يخلو كتاب من الكتب العربية القديمة إلا وفيه لمسة من لمسات التراث الشعبي العربي.

2- منهجهم في الاهتمام بالتراث الشعبي :

-يقول أبو الفرج الأصفهاني: "فلو أننا أتينا بما غنى به شعر شاعر منهم، ولم نتجاوزه حتى نفرغ منه، لجرى هذا المجرى، وكانت للنفس عنه نبوة، وللقلب منه ملّة، وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجد، وإذا كان هذا هكذا فما رتّبناه أحلى وأحسن ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة، ومليك إلى سوقة، وجد إلى هزل، أنشط لقراءته، وأشهى لتصفح فنونه"[3].

ينبّه هذا النص إلى قضية مهمة، مفادها أن علماء العربية القدماء انتبهوا إلى المتلقي وأعطوه حقه في مشاركتهم عملهم الإبداعي وبحثهم في مختلف الفنون والعلوم، لأنه الفضل يبدأ منه في دفع العلماء إلى البحث، ويعود إليه لأنه من صاحب الرأي في استحسان أو استهجان ما يُعرَض عليه، والعامل النفسي الذي ركز عليه هؤلاء جعلهم يعطون المتلقي حقه، وأبو الفرج خبير بأعماق المتلقي العربي، الذي تطوق نفسه إلى التجديد والتنويع، فكان تناوله للأدب الشعبي أشبه بالتسلية إذ يُوصل أبعاد هذا العلم إلى كل المستويات الاجتماعية حتى البسيطة منها، ففيه ترفيه عن النفس، وإشباع للعقل، وتغذية للروح دون إقحام ذلك بالقوة فيقبل المتلقي بشهية عليه، فانتقاله من هذا العلم إلى غيره يخلق لديه الرغبة في الاستزادة والإقبال بقوة . وعلم الرجل بما يمثله التراث الشعبي في حياة الفرد والمجتمع، ولا غنى له عنه، به يقتدي، وإليه يحن، وهو دعامة أساسية في حياته لا يمكنه الاستغناء عنها ؛ إذ يغذي روحه وخياله، فهو صورة الجماعة، وتجارب نفسية لمن سبقوه سنا وخبرة وزمانا، ويجد فيه تنفيسا وترويحا، فهو يقع الموقع الحسن في القلوب والأذهان، هو يختبئ بطريقة أو بأخرى في

---

1 - ابن رشيق، المرجع نفسه، ج2، ص189-190-227-252.

2 - السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وكتب هوامشه وعلّق عليه نعيم زرزور، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (دت)، ص 582-583-584.

3 - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المقدمة، ص 4 حار الكتب، نقلا عن نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 91-92.

مشاعره الدفينة أي لاشعوره، وهذا هو علم النفس بعينه .

– وتعلق نبيلة إبراهيم عن كيفية تناول العرب القدماء للتراث الشعبي بقولها: "عندما يتصفح القارئ المتخصص موسوعات التراث العربي، يسترعي نظره على التو أن الكتّاب العرب القدامى ... كانوا يهيمون بأن يقدّموا للقارئ العربي مادة موفورة عن حياة الشعب العربي في عصوره الجاهلية والإسلامية بقدر ما كانوا يهتمون بالإلمام الشامل بالعلوم العربية"[1].

يفضي قولها إلى أن هدف الدارسين العرب لهذا لتراث هو ربط حبل التواصل بين الماضي والحاضر؛ إذ خدموا التراث الشعبي بصدق وحب وتفانٍ، دون أن يهملوا مهمتهم الثانية وهي تحليل هذا التراث، واستخراج القواعد منه بغية المحافظة على لغته من الضياع والاندثار.

– يقول ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار": "واعلم أنا لم نزل نتلفظ هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمّن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتّاب في حقول من كتبهم، وعمّن هم دوننا، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته، ولا عن الصغير قدرا لخساسته، ولا عن الأمة الدكعاء فضلا عن غيرها"[2] .

يذهب صاحب النص إلى أن المنهج الأمثل لجامع المادة التراثية هو التواضع، إذ لا يهمل صغيرا أو كبيرا، قريبا أو بعيدا، عربيا أو أعجميا، غنيا أو فقيرا، فالتراث الشعبي في أفواه كل فئات المجتمع، وربما فضلنا فئة عن غيرها ففاتنا الخير الكثير، وهذه المرحلة من الجمع التي تحدث عنها ابن قتيبة مهمة جدا، إذ هي أول مرحلة في دراسة التراث الشعبي، تليها بعد ذلك مرحلة التمحيص والتدقيق والفرز والمعالجة واختيار الصواب، ولا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال.

ورغم ما وُجِّه لعمله من نقد، إلا أنه قد قام بأصعب المهام وهي الجمع، الذي يعدّ الركيزة الأساسية في الدراسة.

– يحدد ابن خلدون (ت 808هـ) شروطا وجب الاقتداء بها لكل من يرغب في جمع المادة التراثية يقول: "أسباب كذب الخبر [مايلي]:

*–الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.

*–الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد منها غالبا أو ينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه.

---

1 – نبيلة إبراهيم ،، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المرجع السابق، ص 93.

2 – ابن قتيبة، عيون الأخبار، المقدمة، ص م، طبعة الدار القومية للتأليف والنشر، نقلا عن نبيلة إبراهيم، مرجع سابق، ص 92.

*-الجهل بتغطية الأحوال على الوقائع، لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنّع، فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه.

*-تقرّب الناس في الأكثر لأصحاب التجلّة والمراتب، والثناء والمدح وتحسين الأحوال بإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة"[1].

هذه الشروط تَضْمَن - حسب رأيه- سلامة الأخبار المنقولة من الزيف والغلط. وهي تقترب إلى حد بعيد بالمناهج الحديث في دراسة التراث الشعبي مثل: الشك العلمي؛ إذ لا بد من إرجاع كل خبر إلى مصادره الحقيقية، والابتعاد عن الذوق والملاحظات والتخمينات الشخصية، التي تحول بالبحث عن علميته، وبالخبر عن صحته. الاستناد إلى المنهج التاريخي الجغرافي الذي يسند الأخبار إلى زمانها ومكانها الأصلي الذي ولدت فيه، ومقارنة هذا بذاك بغية التوصل إلى نسبة الخبر إلى أصحابه الذين ألّفوه، وهو ما عبّر عنه "آنتي آرني" -صاحب المنهج الجغرافي التاريخي- معرفة ما يعتري الرواية من حدث وإضافة وتحوير وتغيير[2]، وهو ينبّه بشدة إلى أن بعض الروّاة يستندون إلى أغراض شخصية في نقل رواياتهم، ولذا وجب الحيطة والحذر من أخبارهم الزائفة. وهو ما تذكره الدراسات الحديثة من شروط أهلية الرّاوي للتراث الشعبي: أي نسبه، مكان وزمان ولادته، أجداده، ثقافته وخاصة الدينية منها، أهدافه في جمع التراث، قوة ذاكرته، لكونه يُحْمَل من طريق الحفظ، وتوفر الموهبة والمقدرة على الحفظ[3] أمر لا غنى عنه.

يضيف صاحب المقدمة: [الباحث] يحتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبيت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ...ويحتاج إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير، والأخلاق، والعوائد، والنحل، والمذاهب، وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو كوّن ما بينهما من خلاف، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها... وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبرة ... وحينئذ يعرف فيه المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإذا وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا زيفه واستغنى عنه"[4].

---

1 - ابن خلدون، المقدمة، ضبط وشرح وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2006، ص 41.

2 - آنتي آرني، صاحب تصنيفات شهيرة أهمها بحث بعنوان "أساس البحث المقارن في الحكاية الخرافية"، نبيلة إبراهيم، ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 28.

3- نبيلة إبراهيم، مرجع نفسه، ص 307-308-309.

4 - ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 16-33-34.

يشر ابن خلدون إلى أن دارس التراث الشعبي لا بد له من شخصية متميزة ذات خبرة واسعة بكل العلوم دون استثناء، وقدرة على التمييز والتفسير والمقابلة لأجل سلامة الأخبار، ولا بد أن يكون عارفا بالعلم ووسائله، من تاريخ وجغرافيا، وعلم نفس وعلم مجتمع، وعلوم الطبيعة والسياسة، والاقتصاد، والأنثربولوجيا، والنقد، وعلوم اللغة...إلخ حتى يعرف صحيح الخبر من زائفه، وإن كان زائفا وجب على الفور التخلي عنه وعدم ملأ الكتب به، وهذه أسمى صفات الباحث الجاد الذي يخدم العلم والمجتمع، عكس من يخدم الذوات كما سبق ذكره في النص السالف الذكر.

وهذا قريب إلى حد بعيد بما يدور في الدراسات الشعبية الحديثة، حيث يشترطون اتباع المراحل التالية في دراسة الحكايات الشعبية: جمع الروايات المختلفة للحكاية الواحدة جمعا متقنا شاملا، ثم تريب الحكايات زمانيا ومكانيا، وتحليل مادة الحكاية الواحدة إلى عناصره الأساسية، وبحث كل عنصر على حدة، بعده تتم المقارنة بين ملامح العنصر الواحدة في الروايات المتعددة، واختيار العناصر التي ترد بكثرة في الروايات، فهي أصيلة عن تلك التي ترد فيها بقلة، ثم يخلص الباحث إلى ملاحظة النقص في إحدى الروايات ليحافظ على الرواية الكاملة للحكاية[1]. فهذه العملية الشاقة للفرز والفحص نبّه إليها ابن خلدون.

3-أهمية التراث الشعبي في حياة العرب :

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه "أدب الكاتب": "هذا [ما] نختاره للكاتب، فمن ...أمده الله بآداب النفس من العفاف، والحلم والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، وخفض الجناح، هذا المتناهي في الفضل، العالي في ذُرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بحيز الدارين إنشاء الله تعالى، [ولا بد للكاتب من] النظر في جُمل الفقه ومعرفة أصوله من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته -رضوان الله عنهم-، ولا بد له -مع ذلك- من دراسة أخبار الناس، وحِفْظِ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره، متمثلا إذا كتب، ويصِل بها كلامه إذا حاوَر"[2] .

يجعل صاحب النص أن التراث الشعبي مهم في حياة الفرد كالروح في الجسد ؛ إذ لا يمكن الاستغناء عنه، فالتسلّح به هو الكمال بعينه، ونوال الدارين (الدنيا والآخرة) لا يتم إلا به، لأنه دعامة الفرد في كل مسالك حياته ؛ إذ يحتاجه إذا تكلم، وإذا نظم شعرا، وإذا خطب خطبة، وإذا حاور

---

1 - نبيلة إبراهيم، ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 47.

2 - ابن قتيبة، أدب الكاتب، مرجع ساب، ص 25-19-20.

شخصا أو جماعة، فهو لا يقلّ أهمية عن علوم الفقه والحديث، وهو بمثابة الأدب الذي لابد للشخص أن يعوّد نفسه عليه، فمعرفة آثار السلف خير سلاح لبناء حياة سليمة لا يشوبها نقص، فالشخص من دون تراثه كالأعرج في سيره، والأعمى في بصيرته، والأبتر في يديه . وإن دلّ هذا على شيء فلا يدل إلا على ضرورة وصل الماضي بالحاضر لأجل بناء المستقبل، فالقطيعة بينهما لا تعطي شيئا غير الضياع والغياب عن الوعي.

لا بد من العودة إلى التراث الشعبي، الذي يمثل تجارب واقعية أثمرت حِكَما وجب السير على خطاها، لأنها لم تأت من عدم بل هي نتيجة مخاض طويل حتى رسّخها في الذاكرة الشعبية، والانطلاق منها والعودة إليها دواء وضرورة لا غنى عنهما في حقيبة كل فرد، يلجأ إليه دون شعور، فهو مخزون في لاشعوره وذاكرته الأبدية، ولا يمكن لأحد أن يستغني عن حكاية، أو أغنية شعبية، أو حكمة قديمة، أو مثل متوارث، فكلها متعة للنفس، وحاجة ضرورية.

4-مميزات الأدب الشعبي:

يقول صاحب المقدمة: "من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدّل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوًى شديد الحق؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، كذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول. سنة الله التي قد خلت في عباده"[1].

يذكر ابن خلدون مميزات التراث الشعبي هي كالآتي:

- التبدل والتغير من جيل إلى جيل ومن زمن إلى زمن، ومنه عدم ثبات التراث على شكله الذي ولد عليه، وهو ما يفسر تغير الروايات وخاصة في القصص والأمثال الشعبية.

- تكوّنه بعد حقب طويلة من الزمن، أي هو ذاكرة الأمة الضاربة في أعماق القِدم، وهي تجارب إنسانية تمخضت عن صراع طويل، سقَلها ورتّبها ومحّصها وأضاف إليها، وتعرضت للنقد والتأويل والتعديل، فهي عصارة فكر شعبي عريق، وتتمثل في الأمثال والحكم التي تعتبر دواء من كل داء، إذ وضعها في تضاعيف الحديث وبين أسطر التآليف جواهر ثمينة لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال.

---

1 - ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 34.

-لا يمكن دراسته إلا صاحب العقل الوفير والذهن الثاقب، إذ اختلط في عصرنا الحابل بالنابل، ولا يمكن معرفة الصحيح من الخاطئ، ولذلك وجب تحميل مسؤولية الاهتمام بهذا التراث لمن لهم دراية بالعلوم المتعددة، وأصحاب الضمير الحي، والسليم، والمحب لخدمة العلم والبشر على السواء، وهو ما ينطبق على معرفة أصول الحكايات والأغاني والأمثال الشعبية، أو ما يسمى الآن بالمنهج التاريخي الجغرافي الذي يبحث في تغيرات التراث من حذف وزيادة ...إلخ. والذي يبحث عن مصادر التراث الشعبي، ولا يتأتى ذلك إلا للعارف بأحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم وتاريخهم بمختلف تغيراته الزمنية والمكانية، وتبدل الأشخاص تبعا لذلك، وهو ما يعرف الآن بطرائق الرواية والحفظ، وطبيعة الجمهور المتلقي للتراث، فهو يدل على تجارب الجماعة في مدلولها المعتقدي والاجتماعي، ويفضي هذا كله إلى مجهولية المؤلف التي تميز التراث الشعبي، نتيجة كل هذه التغيرات بمختلف أنواعها[1].

من كل ما سبق نخلص إلى علماء العربية القدامى قد درسوا التراث الشعبي خوفا من ضياعه، واندثاره، وطغيان الثقافات المختلفة عليه، وهو ضروري في حياتهم. لكن رغم محاولاتهم الحديثة وتبريراتهم الناتجة عن الانتقادات التي وُجّهت إليهم، وما قدّموه للخلف من طرق ووسائل للاهتمام به، إلا أن ذلك لا يعني أنهم درسوه دراسة علمية حقّة، لكنه كافٍ ما توصلوا إليه في زمانهم، والزمان كفيل بالتغيير والتحوير والإبداع. وما هو موفور في أيامنا هذه من وسائل ومناهج حديثة يجعل الدراسات أكثر دقة وعلمية، ولا بد من توسيع دائرة الدراسات الشعبية لتشمل المناهج المختلفة (الاجتماعي والنفسي والجغرافي التاريخي) فتتضافر مشكلة معا منهجا علميا سليما، ولا بد من تخصيص معاهد تهتم بهذا التراث، يتوزع العمل فيها على أخصائيين في هذا المجال، وتدعيمها بأرشيف[2] متطور جدا بوسائل معلوماتية حديثة، وفتح المكاتب المتخصصة بهذا المجال أمام الجمهور ليطلع عليها، ويأخذ منها ما يدعم حياته ومستقبله، ويشبع رغباته الجامحة في معرفة أصله وذاكرته، لتطور هذه المكتبات إلى معارض واسعة المجال تتنقل في كل الضواحي دون استثناء لخدمة الجمهور بالدرجة الأولى، ولا بد للجمهور من مساعدة هؤلاء المتخصصين بالإدلاء بشهاداتهم وتجاربهم ولا يخفون شيئا هو ملك للعامة دون الخاصة: من كتب ووسائل تراثية تخدم الأمة جمعاء.

---

1 - حلمي بدير، أثر التراث الشعبي في الأدب الحديث، مرجع سابق، ص 16 إلى 21.

2- نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 215-216-305.

المراجع :

[1] -الجاحـــظ، البيـــان والتبيين، تحقيـــق: درويش جويـــدي، ج1، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003.

[2]- حلمي بدير، أثر التراث الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية، (دت) .

[3] - السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وكتب هوامشه وعلّق عليه نعيم زرزور، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (دت).

[4]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، اعتنى به وراجعة: درويش جويدي، ط1، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2002.

[5] - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن العشر وآدابه، حققه وفصله وعلّق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1981.

[6] - نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بيـــن النظـــرية والتطبيق، طبـــع ونشـــر منكتبة القاهرة الحديثة، (دت).

[7] - ابن خلدون، المقدمة، ضبط وشرح وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2006.